تمثُّلات صورة النبيّ محمّد ﷺ
في كتاب «عظماء رجال الشرق» للامرتين
مقاربة في تصوّرات التّنوير الغربيّ للغيريّة

د. مكّي سعد الله[1]

المقدّمة

انفتح خطاب عصر التنوير كمنجز فلسفيّ ومعرفيّ على جدليّات متنوّعة أفرزتها طبيعة المناظرات وثنائيّات معرفيّة وليدة تناقضات العصر وبيئته، تستهدف التأصيل لفكر نقديّ تجديديّ والتأسيس لعقلانيّة بمختلف تمظهراتها الدينيّة والسياسيّة والثقافيّة.

فقد لامست الأفكار النقديّة وتقاطعت مع مفاهيم الصور النمطيّة والأفكار الجاهزة والأحكام الانفعاليّة والأيديولوجيّة حول «الآخر» والمختلف والمغاير، بالنقد الموضوعيّ والمراجعات العقلانيّة الموضوعيّة. فجاءت أفكار الفيلسوف والكاتب والرحّالة الفرنسيّ الفونس دي لامرتين (Alphonse de Lamartine) بإعادة تركيب وبناء صورة الرسول ﷺ كعظيم من عظماء الإنسانيّة بشموليّة رسالته وقيمها الفاضلة النبيّلة وبروح التسامح واحترام ثقافة الغيريّة والتباين والحقّ في الاختلاف العقائديّ، بتخليصها من تمثُّلات وتصوّرات الانحياز والعدوانيّة والتطرّف التي هيمنت على المنظومة المعرفيّة الغربيّة عبر العصور.

لم يكن لامرتين مقلّدًا لمنظومة الاستشراق وخطابها، ولا تابعًا لأيديولوجيّات المركزيّة الغربيّة وتحيّزاتها في كتابة سيرة الرسول الأعظم وتفسير أقواله وتأويل مواقفه وسلوكيّاته. فقد شكَّل صورة للعظمة والرقيّ الإنسانيّ بناء على مواقف واقعيّة تتجسّد في صور وشهادات ورؤى ومشهديّة استشرافيّة واعية تستهدف التأسيس لمجتمع إنسانيّ تسوده العدالة والرحمة والسعادة في الدارين.

---

١. باحث وأستاذ جامعيّ، جامعة تبسه -الجزائر-.

مدخل: فلسفة المقارنة وجماليّات العظمة

كتب الباحث الفرنسيّ في العلوم المقارنة مارسيل ديتيان (Marcel Detienne) كتابًا وسمه بـ(مقارنة اللامقارن) (Comparerl'incomparable)، ويهدف من خلاله إلى تبيان منهجيّة المقارنة بمعالجة المتشابه والمتجانس في النوع والقيمة، وبناء على الأطروحات والمقاربات المقترحة في الدراسة، فإنّه من الناحية المنهجيّة والموضوعيّة والعقلانيّة لا يمكن إدراج صورة النبيّ محمّد ﷺ مع شخصيّات بشريّة عاديّة اجتهدت في تسجيل بصماتها وترك آثارها في تاريخ الإنسانيّة، فإذا كان القسم الأوّل من سيرة محمّد ﷺ تاريخًا توثيقيًّا لمرحلة طبيعيّة لرجل عربيّ عاش في الصحراء وامتهن مهنها السائدة، فإنّ القسم الثاني من حياته ارتبطت بالنبوّة، وهي مرحلة تتجاوز التفسير السببي والتحليل السطحيّ للأحداث والمواقف والرؤى والتصوّرات؛ ذلك أنّ القرآن أفصح عن صورة محمّد ﷺ واعتبرها مقدّسة تتجاوز المعايير والأهواء البشريّة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤).

احتلّت سيرة النبيّ محمّد ﷺ اهتمام الباحثين الغربيّين باختلاف توجّهاتهم وتيّاراتهم ومواقفهم، وتنوّعت الكتابات بين الجحود والإنكار إلى الإقرار المشروط، ولعبت المرويّات الكبرى والأساطير والإيديولوجيّات أدوارًا مركزيّة في اختيار المناهج وانتقاء المراجع التاريخيّة.

والغالب على الأبحاث الغربيّة العودة إلى الببليوغرافيّات القديمة للنهل من منابعها والأخذ بمعطياتها، وهي دراسات غلبت عليها روح عصرها وبيئتها الفكريّة، والتي غالبًا ما كانت فيها الهيمنة والسيطرة للفكر المتطرّف الموجّه انتماءً لهويّة معرفيّة أو عقائديّة بعينها.

وقد استدرك بعض الكتّاب أخطاءهم ومواقفهم بالتعديل وإعادة البناء إنصافًا للأمانة العلميّة، ومنهم فولتير (Voltaire)، واتّجه آخرون إلى الاعتدال وتوخّي الدقّة العلميّة، فجاءت كتاباتهم تعبيرًا صادقًا عن خلُقهم العلميّ وإكرامًا لنبيّ الإسلام وعظمته، ويتقدّمهم لامرتين (Lamartine) في كتابه «عظماء رجال الشرق» (Les Grands Hommes de L'Orient).

إنّ شخصيّة محمّد ﷺ تجاوزت في مناهج البحث والتحليل العلامة السيميائيّة، والأيقونة المعلوماتيّة، والقيادة التاريخيّة، والزعامة السياسيّة، والنموذج البشريّ الطبيعيّ، والصورة

النمطيّة للإنسان الخاضع للأهواء والنزوات. فالاصطفاء الإلهيّ والانتقاء المقدّس ينأى عن المعايير البشريّة التي تتحكّم فيها المؤثّرات الداخليّة والخارجيّة، فتجنح للعاطفة والمنفعة.

فمنهج القيادة وفلسفتها وجماليّاتها تمكّنت من روحه وجسّدتها سلوكيّاته، التي تستجيب لمقاصد وتوجيهات تهدف إلى تحقيق إنسانيّة الإنسان في كيانه ووجوده. فقد تجلّت سمات العظمة وخصائصها في تنشئته الاجتماعيّة وتفرّده وتميّزه، فقد أثبتت قطوف سيرته قبل البعثة ودلّت على كماله سيكولوجيًّا وفكريًّا وعقائديًّا، وكشفت عن مؤهّلاته في القيادة من خلال اتّزان نفسه وهدوئها وطهارة قلبه ووجدانه، بالإضافة إلى الاستقامة والاعتدال، فكان نموذجًا للأب والزوج والصديق والقريب.

إنّ عظمته ﷺ تمظهرت بعد الدعوة في أداء الرسالة والصبر عليها، وتكوين الدولة وتأطيرها بقيم التّشريع الإلهيّ الداعي للعدل والتّسامح والإخاء وتكوين الإنسان والثورة على الشرك والتطرّف وغيرها من القيم الراقية والسامية.

أوّلًا: تلقّي الغرب ومركزيّته للقرآن والإسلام/ سلطة المرايا والوسائط الوهميّة

لعب المتخيَّل الغربيّ دورًا مركزيًّا وجوهريًّا في تحديد وبناء العلاقة بين الغرب والقرآن؛ ذلك أنّ الاحتكاك المباشر لم يتجاوز رحلات التجارة والحروب، وهي المواقف والمشاهد التي تبتعد ابتعادًا كلّيًّا عن فهم وإدراك واستعراض مضامين القرآن الكريم وتشريعاته ومبادئه، وهذا يعود إلى سببين أساسيّين، أوّلهما الأهداف والغايات من التّقاطع والاحتكاك وأسبابها، والثاني يرجع إلى طبيعة البنية البشريّة ومستوياتها ودرجاتها الثقافيّة وإمكاناتها العلميّة والأكاديميّة، والتي لا تؤهّلها في الغالب إلى قراءة النصوص القرآنيّة ومقاربتها مقاربات علميّة لإيصالها إلى متلقّ متعطّش لمعرفة كنهها وجوهرها.

ونتج عن هذا الانقطاع والمقاطعة والتواصل المعرفيّ العميق والصحيح وجود أشكال متعدّدة ومتنوّعة من الإسلام، ونماذج مشكَّلة ومركّبة لشخصيّة رسوله العظيم، مع نصوص مؤدلجة ومنتحلة ومدلّسة من قرآنه الكريم بسبب المرجعيّات الغربيّة المختلفة في الانتماءات

الهويّاتيّة والإيديولوجيّات المعرفيّة والدوافع السياسيّة والسوسيو-ثقافيّة التي تقف وراء تشكيل الصور والتمثُّلات والمقاربات. فقد ساهمت المرويّات الكبرى أو السرديّات الكبرى (les grands narratives) في تزييف الحقائق باعتبارها محصّلة التصوّرات والمفاهيم والأنماط المعرفيّة الموجهة والمتحيّزة، بما روّجته وأشاعته من مغالطات وليدة المتخيّل الأدبي (imaginaire littéraire) وأساطير مدفونة في مدوّنات الكهنة والرهبان والمتخيّل الخرافي، بالإضافة إلى الترجمات الاعتباطيّة والعشوائيّة، التي تحولّت في منظومة المركزيّة الغربيّة إلى أداة للتّشويه والتّحريف بدوافع كولونياليّة وتبشيريّة[1].

والتحيّز المعرفي إعاقة فكريّة تصيب العقل المؤدلج، الذي تهيمن عليه العاطفة والإيديولوجيا والتعصّب، فتمنعه عن الحقيقة وتحجب رؤيته عن إدراك الصواب وتمييز المغالطات، فيصبح آلة تجترّ الأوهام والسراب، يقول الأستاذ إيناس لويس غوندال (Ignace-Louis Gondal) (١٨٥٤-١٩٢٠م) مدرّس التاريخ بالمعهد الكنسيّ سانت سوبليس (séminaire Saint-Sulpice) وهو صاحب كتاب محمّد ومؤلّفه (يقصد القرآن) (Mahomet et sonœuvre) (١٨٩٧م) «أصبح محمّدﷺ في الرابعة والعشرين من المشاهير، يعرف جيّدًا بلده، مع إدراكه لعظمة الحضارة المسيحيّة... ومنها راودته فكرة الثورة الاجتماعيّة والدينيّة، فهو يحلم بمستقبل زاهر لبلده»[2].

فمكوّنات المركزيّة الأوروبيّة تجعل العقل يشكّل الوقائع والأحداث والمواقف وفق منظوره الضيّق والمحدود بأسيجة الإيديولوجيا لا يتّسع لاستيعاب «الغيريّة» و«ثقافة الاختلاف» فيتمّ

---

١. أطروحة الباحث الفرنسيّ رونو تيرم (Renaud Terme) (١٩٤٧) الموسومة بـ(إدراك الإسلام من النخب الفرنسيّة بين ١٨٣٠- ١٩١٤) (La perception de l›islam par les élites françaises) (١٨٣٠-١٩١٤) والتي ناقشها بجامعة بوردو الثالثة (Bordeaux ٣) سنة ٢٠١٦، أنّ النخبة الفرنسيّة تلقّت الإسلام وأدركته عن طريق وسائط متعدّدة وغير مباشرة ممّا أنتج تصوّرات ومواقف عدائية مصطنعة، ومنها كتابات الكتاب الرحّالة (الفصل الثاني، ٤٠) والمبشّرين (الفصل الثالث، ٧٦) وعلماء اللغة واللسانيّات (الفصل الرابع، ١١٠) ومؤلّفات المرويّات الكبرى التي ولدت خوف وازدراء واحتقار الغرب للإسلام في القرن السابع عشر (ص١٥٨).

2. Gondal, Mahomet et Son œuvre, 8.

تلوين المغايرة بمعايير العنصريّة والدونيّة والاستصغار والتّشويه، فيتحوّل الرسولﷺ إلى مجرم وقاطع للطريق، سافكًا للدماء من أجل المال والسلطة «عاش النبيّ طوال هذا الوقت حياة القائد العربيّ، وهي حياة المغامرات والأخطار والنهب والدم... وألهم أنصاره فنون اختيار المواقع وتحضير الهجوم وتنظيم الدفاع، كما علّمهم التّعصب وازدراء الموت»[1].

إنّ الوسائط بين الإسلام والغرب لم تكن موضوعيّة ولا علميّة؛ ذلك أنّ ممارسات هذه النظريّات تكرّس اختزالًا وتشويهًا لثقافة «الآخر» ومعتقداته، فخضعت عمليّات تقديم القرآن والإسلام لرهانات الكنيسة ومشاريع رجال الدين وهيمنة المركزيّة الغربيّة وسلطتها في تمثّل «الغيريّة». فمناخ التلقّي كان مشحونًا بالتّعصب والهيمنة السياسيّة والأطماع الماديّة والمكاسب التجاريّة والمصالح الإستراتيجيّة.

وبناءً على هذه المعطيات والمؤشّرات، فلم تنظر المنظومات الفكريّة الغربيّة إلى الإسلام وقرآنه نظرة موضوعيّة للاستكشاف والمعرفة بتوظيف المناهج العلميّة، بقدر ما قاربته بخلفيّات متحيّزة ومرجعيّات متطرّفة متشبّعة بمفاهيم المركزيّة وسلطتها المشحونة بالعنصريّة والإقصاء والتّشويه والمغالطة «كان الإسلام عبر التاريخ كيانًا غامضًا بالنسبة للغرب خاصّة، ولغير المسلمين عامّة، لقد وضع رجال الأعمال الإسلام ضمن مشاريعهم السياسيّة والاقتصاديّة، أمّا رجال الدين فقد اقتربوا منه بدوافع روحيّة أو لمصلحتهم الفكريّة والثقافيّة وفي إطار عملهم التبشيري. كلّ هذه الجماعات نظرت إلى الإسلام من خلال وجهات نظرهم الخاصّة للدفاع عن أنفسهم ضدّ سلطة إسلاميّة عدوانيّة»[2].

وتكمن مخاطر التّزييف والتّشويه والتّدليس في انتقال المعلومة والفكرة والتصوّر والموقف من طور المشافهة والرؤية الشخصيّة الذاتيّة ضمن تداول محدود إلى المتون التاريخيّة والموسوعات والمعاجم والكتب المدرسيّة؛ ذلك أنّ هذه الوثائق يتداولها الأكاديميّون والباحثون ويوظّفون

1. Ibid, 16.
2. Waardenburg, L'Islam, les orientalistes et L'Occident. Recherche de Contact et de Dialogue, 180.

معلوماتها كاقتباسات وشواهد، ويوثّقونها في أبحاثهم وأطاريحهم، ومنها تأخذ المشروعيّة والمصداقيّة، فتتناقلها الأجيال التعليميّة والمصنّفات الجامعيّة، فتصعب المراجعات وإقامة التصويبات بسبب اتّساع رقعة التّداول والتّرويج والشيوع، فقد جاء في معجم المعاجم الفرنسيّ أنّ محمّدًاﷺ هو «مؤسّس الإسلام والإمبراطوريّة العربيّة، حيث توسّعت دعوته ليحتلّ الجزيرة العربيّة وسوريا ومصر وفارس وإفريقيا، ولكن تمّ توقيف توسّعاته بفرنسا من طرف شارل مارتيل (Charles Martel) في موقعة بواتييه (Poitiers)»[1].

إنّ معجم المركزيّة الأوروبيّة في تمظهراتها المختلفة وتجليّاتها الواسعة لا يعدو أن يكون حزمة من المصطلحات المستهلكة والسطحيّة التي تتّهم المغاير والمختلف فكرًا وعقيدة وكينونة بالدونيّة والوحشيّة والبربريّة وضعف الأداء الذكائيّ مقارنة بمختلف الأجناس والأعراق، وهذا ما يسبّب التخلّف الحضاريّ ويبرّر الاستعمار باعتباره فتحًا حضاريًّا.

كما يكرّس هذا المتخيّل الوهميّ مفاهيم التخلّف والبعد عن القيم الإنسانيّة من تسامح وحبّ وتعاون، مع هيمنة الأسطورة والفكر الخرافيّ البدائيّ على العقل، متجاهلين أنّ قيام الغرب ونشأته كانت أسطوريّة بتمركز لاعقلانيّ حول الذات والفكر اليونانيّ الكلاسيكيّ.

فقد صنع المتخيّل قرآنًا وإسلامًا خاصًّا ومتميّزًا بالاعتماد على تأويل الوسائط وتحريف الترجمات وتعميم النماذج السلبيّة والفرديّة من التاريخ، حيث تتمّ عمليّات الانتقاء من التاريخ للمشاهد والمواقف وتوظيفها كصور عامّة وشاملة تمثّل الإسلام والمسلمين «كان التقليديّون من أوائل ممثّلي النخبة الفرنسيّة في اتّخاذ موقف من الإسلام، فهذه الديانة بالنسبة لهم من أبغض وأشنع الملل...فقد أراد محمّدﷺ أن يكون كاردينالًا، مناهضًا للمسيح، مدفوعًا من الشيطان والشرّ لاختلاق دين جديد تعبد فيه النجوم والشمس والقمر. كما يمكن لأتباع هذا الدين الوهميّ أن ينتهكوا دون ذنب إيمانهم ومعاهداتهم مع الكفّار، لقد تحرّروا جميعًا من العقاب الأبديّ؛ لأنّ جهنّم ليست لهم»[2].

1. Guérin, (sous la direction) Dictionnaire des Dictionnaires: Lettres, Sciences, Arts, 445.

2. Bilici, "L'Islam en France Sous L'Ancien Régime et la Révolution: Attraction et Répul-

يذهب الكاتب والراهب الفرنسيّ جاك بوسيه (Jacques-Bénigne Bossuet) (١٦٢٧–١٧٠٤م) في كتابه (خطاب في التاريخ الإنسانيّ) (Discours sur l'Histoire universelle) (١٦٨١م)، وهو من المصنّفات العمدة ذات التداول الأكاديميّ الواسع إلى أنّ محمّدًا نموذج للمخادع مدّعي النبوّة والرسالة، استطاع بسحره وتسخيره للجنّ والشيطان من مراوغة شعوب وأمم، مستغلًّا جهلها وطيبتها وفطرتها في الإيمان الغيبيّ. كما أنّه حصّن نفسه باتهام كتب اليهود والمسيحيّة بالتّحريف والتّزوير حتّى لا يطّلع عليها مريدوه[1].

عجزت المركزيّة الغربيّة بنخبها وتنويرها في مقارعة سلطة الحقيقة والمصداقيّة الإسلاميّة بالحجّة والبرهان وتقديم القرائن الدامغة لدحض مشروعيّتها الروحيّة، المتميّزة بنصاعة مبادئها ووضوح شريعتها ومقاصدها وإنسانيّة غاياتها وأهدافها، فاتّجهت إلى صناعة صور نمطيّة متخيّلة ضمّنتها أنساقًا ثقافيّة متوهّمة، سرابيّة البنية، ضبابيّة المقصد، ضعيفة الإحكام، خرافيّة المبنى والمعنى، جاعلة من المُتخيَّل انبثاقًا لتصوّراتها وتمثّلاتها، المؤسّس عن تكوينها النفسيّ والفكريّ والأنثربولوجيّ الذي يكرّس الفكر البرّي المتوحّش بتعبير كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) (١٩٠٨–٢٠٠٩م) الموغل في العنصريّة والإيمان بالتفاوت بين الأجناس على أساس العرق واللون والدين.

وقد وقفت هذه الرؤى والمعتقدات المركزيّة حاجزًا أمام التواصل الحضاريّ وإقامة المثاقفة الندّيّة، وبناء ركائز حوار الحضارات والأديان، وعرقلة كلّ مبادرات ودعوات التنويريّين المعتدلين من أمثال فولتير (voltaire) (١٦٩٤–١٧٧٨م) ومونتسكيو (Montesquieu) (١٦٨٩–١٧٥٥م) وفيكتور هوجو (Victor Hugo) (١٨٠٢–١٨٨٥م).

ثانيًا: مصنّفات "حياة محمّد»ﷺ (La Vie de Mahomet)

إنّ المستعرض والمتصفّح لبيبليوغرافيّات السيرة الذاتيّة والغيريّة بالمكتبات الغربيّة يعثر على كمّ وعدد معتبر من المصنّفات والمؤلّفات التي تتعلّق بحياة الرسول محمّد ﷺ وتحمل جميعها وسم «حياة محمّد» (La Vie de Mahomet).

---

sion", 23.

1. Bossuet, Discours sur l'Histoire universelle, 108.

وليست الغاية من هذا التقديم البحث في مكانة السيرة النبويّة في الفكر الاستشراقيّ، ولا تحليلًا وتفكيكًا لمناهج دراستها لغرض تصويب الشبهات والأغلاط بمختلف تجليّاتها وظهورها ودرجاتها، والتي شملت الهمز واللمز والطعن والزعم والإنكار والتناقض وغيرها من مظاهر الإقصاء والتكذيب وإشاعة الريب والشكّ.

١. إشكاليّة التسمية بين (Mahomet) و(Mohammad)

أوّل ما يُثير الدهشة في التّعامل مع كتب سيرة الرسول محمّدﷺ هو اسمه، حيث توظّف المنظومة الفكريّة الغربيّة مصطلح (Mahomet) لتعيينه وتحديد هويّته، بدلًا من الترجمة أو التعريب ليصبح (Mohammad).

وقد أرجع تريستان فيغليانو (Tristan Vigliano) (أستاذ الأدب الفرنسيّ في القرن السادس عشر) في كتابه (الإسلام ثقافتي) (L'islam e(s)t ma culture) أنّه يمكن استخدام المصطلحين (Mahomet) و(Mohammed) دون إشكال معرفيّ؛ لأنّه تقليد فرنسيّ قديم تمّ توظيفه في المعاجم والموساعات إلى غاية القرن السادس عشر رغم احتجاج ومعارضة الفكر الإسلاميّ؛ لأنّ مصطلح «محمّد»ﷺ «كان اسم محمّد (Mahomet) يدلّ على جملة من الصفات والمفاهيم التحقيريّة، ففي القرن الثاني عشر كانت تحمل دلالات النقص والفاحشة. ويحمل تاريخ اللغة الفرنسيّة مقاربات ومصطلحات عدائيّة للإسلام منذ قرون، وهي سائدة ومازالت تسود، ممّا جعلنا ورثة لهذا المتخيّل اللغويّ العدوانيّ»[1].

وقد أجرت جريدة «العالم»الفرنسيّة تحقيقًا حول استخدام لفظة (Mahomet) بدلًا من (Mohammed) و(Muhammad)، فحسب الأستاذ ميلود غرافي (أستاذ اللغة العربيّة بجامعة ليون الثالثة) «إنّ تشويه وتحريف اسم محمّد يعود إلى العصور الوسطى، وبشكل أدقّ إلى الترجمات اللاتينيّة الأولى للقرآن، حيث كان ينسخ اسم نبيّ الإسلام (Mahumet) وهذا الشكل موثّق منذ الترجمة الأولى للقرآن إلى اللاتينيّة، أي ترجمة رئيس دير كلوني بيير المبجّل،

1. Vigliano, "Pourquoi Dites-vous Mahomet?", 21.

عام ١١٤٢، والتـي تُدعى«ليكس ماهوميـت» (Lex Mahumet pseudoprophete) بمعنى «قانون النبيّ الكذّاب محمد»[1].

ولم يحاول علماء اللسـانيّات ومؤلّفو المعاجم تصويـب أخطاء معاجمهم، التي تخضع بصفة دوريّة إلى المراجعات والإضافات والاشتقاقات لتوليد المعاني حفاظًا على نسقيّة اللغة في مواكبة التطـوّرات وملاءمة المتغيّرات، ولكنّها أبقت على الإسـاءات المقصودة والمتعمّدة «يرد اسـم (Mahomet) في الفرنسيّة القديمة مرادفًا لعبادة الأصنام، أمّا المحمّديّة (Mahomerie) فتعني المسجد ومعبد الآلهة المزيّفة والمعبد الوثنيّ ثمّ عبادة الأوثان بصفة عامّة»[2].

دفـع الحقد العقائديّ والتعصّب الفكريّ إلى صناعة معجـم لغويّ خاصّ بالنبيّ محمّدﷺ جمعـت فيـه كلّ مصطلحات الدونيّـة ومفاهيـم الاحتقار، مـع مصـادرة كلّ الآراء المغايرة والدراسـات القائمة على المراجعة والتصويب والمعارضة والحجر على تقديم البدائل بالتّشويه والمنع والمقاطعة والحجز، لتسـود وتشيع رؤيتهم الأحاديّة وتصوّراتهم الجائرة، فأصبح «محمّد في منظومتهم صنمًا أو وسامًا أو صورة»[3].

إنّ المعطيـات والمعلومات والأفكار التي قدّمتها المركزيّة العقائديّة حول سـيرة الرسـول الأعظم تشـكّل أطروحـات وهميّة لا تقوم على برهان عقليّ أو توثيـق تاريخيّ، فهي عبارة عن أوهام لتسويغ عداوات ومواقف لا تقوم على سند علميّ أو منهجيّة موضوعيّة، ويتجلّى العجز المعـرفيّ في ضعفهم في الردّ على المنصفين والمعتدلين من أبناء جنسـهم، الذيـن انتصروا للنبيّ الكريم ﷺ حيث لا نكاد نعثر على تكذيب أو معارضة أو تفنيد لمواقف غوته وفولتير وفيكتور هوجو..

تقوم الإرسـاليّة المتعصّبة على رسالة من مرسـل ومتلقٍّ، فاعل ومنتج لخطاب استفزازيّ، يستقبله متلقٍّ غربيّ متشبّع بثقافة التطرّف والعنصريّة، فيقع في قلبه وعقله موقع اليقين، فيؤمن

1. Maad, et Audureau, Pourquoi parle-t-on de “Mahomet” et Pas de “Mohammed” ou “Muhammad”?
2. Vigliano, “Pourquoi dites-vous Mahomet?”, 23.
3. Ibid, 24.

به على أنّه تهديد للهويّة والعقيدة، فيتحوّل تحت سلطته إلى مناضل يحمل لواء الدفاع عن العقيدة أمام المخاطر المتخيّلة من المركزيّة العقائديّة والفكريّة «يجهل الأوروبيّون في العصر الوسيط العالم العربيّ، فهم يردّدون هذا الاسم (محمّد) بتحفظات بيانيّة. فالكتابات اللاتينيّة تسمّيه (Mahom-et) أو (Machomet) و(Mahomet) هي الترجمة التي استقرّت وانتهت إليها الترجمات في القرن الثاني عشر، وقد رأى المسلمون في ذلك استفزازًا متعمّدًا؛ لأن عبارة (Ma–humid) لفظة قريبة صوتيًّا من معنى (غير محمود) وهي مناقضة ومعاكسة للفظ «محمّد» الذي يعني (محمود)، وقد ظلّ وبقي الأوروبيّون مرتبطين ومتعلّقين بمفهوم القرون الوسطى على الرغم من رفض المسلمين»[1].

أنتج البناء التراكميّ للأفكار المتكرّرة في مصنّفات ومؤلّفات المركزيّة الغربيّة حول سيرة المصطفى إلى تشكيل صور نمطيّة مبنيّة على أحكام عاطفيّة عقائديّة أو توجّهات فكريّة متحيّزة ومنحرفة.

فقد كتب الرهبان والقساوسة تاريخ سيرة الرسول محمّدﷺ وفق نظرتهم ومعتقداتهم ورسالتهم، ولأغراض خاصّة تهدف إلى تشويه صورته وخلق فوبيا منفّرة؛ ولذلك لم تتجاوز موضوعاتهم نطاق النبوّة ومصداقيّتها وتشريعاته وغزواته، فجاءت المقاربات في أنساق سرديّة تقريريّة بعيدة عن التحليل العميق والمنطق الحكيم، فجاءت الأفكار مكرّرة، مملّة وساذجة، بالإضافة إلى السطحيّة في العرض والتقديم « يعود أوّل ظهور لهذا الاسم «محمّد» (Mahom-et) إلى اللغة اللاتينيّة القديمة المتداولة في العصور الوسطى، وبالضبط إلى الراهب راؤول غلابر (Raoul Glaber) (أوائل القرن الحادي عشر) الذي يصف («سارازين») (Sarracènes) (المنتسبين للإسلام) ويذكر نبيّهم الذي يسمّونه محمّد»[2] Mahomed.

تتكرّر هذه الأفكار دون نقد موضوعيّ أو تصويب يستند إلى المنهج العلميّ القائم على الحجاج العقلانيّ للدحض والتفنيد والإقناع في جميع المعاجم والموسوعات ومتون التاريخ القديم.

1. Hanne, “Qui était Mahomet?”, 20.
2. Dignat, Introduction à l’islam, 128-29.

وعلى الرغم من تطوّر المناهج النقديّة وظهور فكر المقارنات، إلّا أنّ الدراسات الثيولوجيّة في الغرب بقيت رهينة الموروث العقائديّ للمركزيّة الأوروبيّة وسلطة المعتقد الكنسيّ والفكر الكولونيالي، الذي يرفض المراجعات، ويكتفي بإعادة نشر مؤلّفات العصور الأولى للتواصل والاحتكاك بين الإسلام والمسيحيّة وبين الشرق والغرب.

٢. «حياة محمّد» (La vie de Mahomet)

لا يتّسع في مقام البحث حجمًا استعراض جميع المؤلّفات التي حملت عتبتها المركزيّة عنوان «حياة محمّد» (La Vie de Mahomet) وإنّما سوف يتمركز العرض حول أهمّ المصنّفات القديمة التي أسّست لمرجعيّة فكريّة في الثقافة الغربيّة، فكانت لبنة أساسيّة في التأسيس والتأصيل لنمطيّة صورة الإسلام ونبيّه العظيم. «تتمّ محاربة «الملّة أو البدعة المحمّديّة» بقوّة وقسوة إلى حدّ كبير، ونذهب إلى أبعد من ذلك بحيث نتّهم «محمّد» وننعته بأنّه عدوّ للمسيح، بعثه الشيطان لمعاقبة المسيحيّة النائمة أو الفاسدة. ومع مطلع عصر النهضة، ظهر تفسير آخر يشير إلى أنّ الدين الإسلاميّ يشكّل خداعًا سياسيًّا هائلًا يهدف إلى تأسيس ثيوقراطيّة، فمحمّد ليس مثل موسى أو حتّى المسيح، إنّه مجرّد دجّال طموح ومتعصّب»[1]، فتحوَّلت أفكارها ورؤاها وتصوّراتها بحكم التداول والإعادة والتّكرار والاقتباس والتّوثيق إلى مراجع يحتكم إليها الأكاديميّون والباحثون، ويستمدّون معلوماتهم وأفكارهم منها.

وبصرف النظر عن مصداقيّة هذه المرجعيّات وقيمتها العلميّة وكيفيّة بنائها وأسّس اعتمادها ومعايير مشروعيّتها، إلّا أنّها أصبحت مصدرًا ومنبعًا للفكر الأوروبيّ في نظرته إلى ثقافة الاختلاف و«الغيريّة»، وهما الفضاء الأكثر تجليًّا للدين الإسلاميّ وثقافة الشرق، ذلك أنّ جميع المراجع تؤكّد على أنّ الصورة تمّ هندستها وفق نظرة كنسيّة لاهوتيّة «نظرت الكنيسة إلى الإسلام على أنّه خطر جسيم ليس فقط لامتلاكه قدرة وقوّة غير عاديّة على التوسّع والانتشار، ولكنّه قبل كلّ شيء قد تسبّب في موت الكنائس المحلّيّة، التي وجب أن تكون لهم مكانة رئيسيّة

1. Berriot, "Remarques sur la découverte de l'Islam par l'Occident", 11.

في تصوّرها وإدراكها»[١].

وتعتقد الكثير من الدراسات والأبحاث أنّ ظاهرة الإسلاموفوبيا التي يعيشها المسلمون في الغرب، هي نتيجة لتراكمات عقائد الكراهيّة والعدوانيّة التي انتشرت في الفكر الأوروبيّ خلال مراحل الصراع الصليبيّ وبدايات اكتشاف القرآن والإسلام، حيث يسرد المؤرّخ البريطانيّ نورمان دانييل (Norman Daniel) في كتابة (الغرب والإسلام، صناعة الصورة) (Islamand the West: The Making of an Image) (١٩٥٨) أنّ أوروبا كلّها تشترك في موقفها من الإسلام فـ«تشترك ردود الأفعال المسيحيّة تجاه الإسلام قديمًا مع ردود الأفعال الحاليّة، فالتقليد لم يتغيّر ولم يغادر موطنه، فهو يحمل طبيعيًّا متغيّرات، ولكن للغرب الأوروبيّ دائمًا نظرته الخاصّة للإسلام التي تشكّلت بين حوالي ١١٠٠ و١٣٠٠ والتي لم تتعدَّل إلّا ببطء شديد»[٢].

ويرى أنّ الصورة تكوّنت بناءً على كتابات تعود إلى العهود الرومانسيّة والعصور الوسطى وحتّى لفترة التنوير الأوروبيّ، الذي افتقد إلى التفكير العقلانيّ المؤسّس على المرجعيّة النقيّة معرفيًّا، والصافية توثيقًا، والراقية طرحًا ومنهجًا، لتصدر أحكامًا وقيمًا موضوعيّة، وتكون منهلًا للبحث الأكاديميّ الموضوعيّ «تدين المواقف الحديثة تجاه الإسلام بالكثير للرومانسيّين والعصور الوسطى والتنوير»[٣].

ينتقي البحث مجموعة من السير التي تناولت سيرة المصطفى، فترجمت لحياته، عارضة أخبار القرآن والمواقف والغزوات، وادّعت أنّها تستقي معلوماتها من مصادر عربيّة أصيلة إقرارًا للحقيقة وإقناعًا للمتلقّي الغربيّ، الذي يستقبل المعلومة والفكرة دون تحقيق أو نقد وتدقيق؛ لأسباب منها الموضوعيّة، وهي ما تعلّق بإتقان اللغة العربيّة وصعوبة الوصول إلى المصدر العربيّ، ومنها ما هو ذاتيّ ويرتبط بالعقيدة المسيحيّة والإيديولوجيا المركزيّة.

ومن أهمّ السير الغربيّة التي حملت عنوان «سيرة محمّد» (La Vie de Mahomet) ما يلي:

1. Harpigny, "L'Islam Aux Yeux de la Théologie Catholique", 201.
2. Geisser, "L'islamophobie en Europe: de l'anti- mahométisme chrétien au racisme "moderne", 40.
3. Ibid.

أ- كشف المؤرّخ والمستشرق وعالم الدين الإنجليزيّ هامفري بريدو (Humphrey Pride-aux) (١٦٤٨-١٧٢٤م) في كتابه عن سيرة الرسول ﷺ والموسوم بـ«الحقيقة الطبيعيّة للخديعة المنتشرة في حياة محمّـد» والمعروفة بـ«حياة محمّد» (١٦٩٧م) يحمـل الكتاب أكاذيب وأقاويل وسرد أحـداث متخيّلة، بحيث يمكـن التحقّق من مصداقيّتها تاريخيًّـا، بالإضافة إلى التأويل والقراءة المتحيّزة والسطحيّة للأحداث والمواقف، فالكتاب يشكل بيانًا صريحًا لعدوانيّة عنصريّة لا تستقيم عقلًا ولا تاريخًا، فيتجلّى الرسول محمّد ﷺ طوال الوقت على أنّه رجل ماكر ومتلاعب قام عن قصد بالتظاهر بالرؤى والكتاب المقدّس من أجل تعزيز مكانته «في بداية المخادعة، مال محمّد نحـو اليهود والنصرانيّين، وقد قدّم مذهبه الجديد وفق نمـوذج الديانة اليهوديّة، هؤلاء اليهود الذين انقلب عليهم بعد وصوله إلى المدينة»[1] وتستمرّ الافتراءات حول مصداقيّة الرسالة لتصـل إلى قمّة الاتهام بالانتحال، فهي عبارة «عن اقتباسـات من العهديـن القديم والجديد، فجميع القصص والنصوص مأخوذة من الكتب المقدّسـة المسيحيّة لتمنح لخداعه بعدًا إغرائيًّا تأثيريًّا»[2].

ولمحمّد ﷺ حسب الكاتب رغبات ونزوات تطوّرت مع حالته النفسيّة للسلطة إلى أهداف وغايات، وهو لا يدّخر جهدًا ولا وسيلة لتحقيق طموحاته وجشعه «الهدف الأوّل من خديعته هي تحقيق طموحه وجشعه، وكلّما تقدّم به العمر زاد جشعه وحبّه للسلطة»[3].

يواصـل الكاتب رصف الاتّهامات وهندسـتها لتتماشـى مـع قناعاته العقائديّـة، موظفًا ومسـتخدمًا كلّ الألفاظ والمصطلحات التي من شـأنها التّشكيك في الرسـالة المحمّديّة، وقد توزّعت المغالطات على محورين:

١. خصّص القسـم الأوّل من افتراءاتـه للقرآن الكريم، فهو في نظره نسـيج من السرد القديم للأساطير والخرافات، بالإضافة إلى اقتباسات من الكتب السماويّة القديمة.

٢. حشـد أوصاف الجشـع والقتل وحبّ السـلطة والغواية للرسـول الكريم، لصناعة

1. Prideaux, The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of "Mahomet", 156.
2. Ibid, 164.
3. Ibid, 149.

نموذج يوافق ويناسب الصورة التي رسمها المؤلّف لعنوان كتابه «المخادع الأكبر».

ب- التصنيف في حياة محمّد (La Vie de Mahomet): صنّف هذه السيرة الكاتب الأمريكيّ إيفرينغ واشينطن (١٧٨٣-١٨٥٩) تحت وسم (Washington Irving, Mahomet and his successors: Muhammad, Prophet, d. 632, Islam, Islamic Empire - History) (واشنطن ايرفينغ، محمّد وخلفاؤه، النبيّ محمّد، ت ٦٣٢، الإسلام، تاريخ الإمبراطوريّة الإسلاميّة) المترجم إلى اللغة الفرنسيّة سنة ١٨٦٥، تحت عنوان «حياة محمّد» (La Vie de Mahomet) ويشتمل الكتاب على فصول متعدّدة تتناول (ملاحظات أوّليّة حول شبه الجزيرة العربيّة والعرب) (طفولة محمّد) (عادات متعلّقة بمكّة والكعبة) (رحلة محمّد الأولى نحو سوريا) (اهتمامات محمّد التجاريّة وزواجه من خديجة) وغيرها من المباحث المتعلّقة بالوحي.

وانطلاقًا من المقدّمة تبدأ سلسلة الإشارات المشبوهة حول حياة الرسول ﷺ فجاءت مقتضبة مشكّكة في مصداقيّة الرسالة «يروي الكاتب عن محمّد ما نعرف أنّه صحيح، وما ابتدعته واختلقته الأساطير الشرقيّة حوله، ممّا يمكّننا من بناء حكمنا على الرجل وأن نفهم هذا الرسول وأتباعه»[1].

يسعى الكاتب إلى إثبات نسخ القرآن وتأثّره بقصص ومبادئ المسيحيّة، التي سادت شبه الجزيرة العربيّة، وتعلّمها محمّدﷺ من رهبانها وطوائفها عند احتكاكه بهم وتواصله مع دلالاتها وتشريعاتها الروحيّة، حتّى انعكس هذا التأثير في قرآنه الذي يشعّ بأفكار وعقائد المسيحيّة «إنّ النظام المعروض في القرآن، يستند أساسًا إلى العقائد المسيحيّة الواردة في العهد الجديد، وقد تمّ تقديمها وتعليمها إليه من الطوائف المسيحيّة في شبه الجزيرة العربيّة»[2].

ويتواصل التجنّي على القرآن بتبنّي تراكمات الموروث المسيحيّ الكهنوتيّ المبنيّ على التحريف من خلال نقل وتكرار الشبهات والمغالطات دون استقراء للتاريخ لفهم جذور التأثير والتأثّر ومعرفة الإمكانات الفكريّة والعقائديّة التي يجب استحضارها وتوفّرها لفهم وإدراك مضامين الرسالات السماويّة القديمة.

1. Irving, Vie de Mahomet, Traduit Par Henry Georges, “Introduction”.
2. Ibid, 71-72.

لقــد اقتضت المعتقــدات المذهبيّة للكاتب على الإصرار في إثبات تهمة الأصول المســيحيّة للقرآن، فتحوّلت الكتابة في السيرة النبويّة عند كتّاب الغرب إلى مشاريع عقائديّة/ أيديولوجيّة غرضها التّشــكيك في قداســة القرآن، وإلصاق شــبهات الاقتباس من الديانات القديمة «عاد محمّــد إلى مكّة، وخياله مملوء بالحكايات والتقاليد الوحشــيّة التي جمعهــا من الصحراء، وكان عقله متأثّرًا بشدّة بالمذاهب التي شرحت له في الدير النسطوريّ. ويبدو أنّه يحتفظ دائمًا باحترام غريب لسوريا منذ ذلك الحين، ربّما بسبب التعليمات التي تلقّاها هناك»[1].

وســيرة إيفرينغ تحمل بعض الإنباء والإخبار الموضوعيّة، فليســت كلّها تشــكيكًا وسردًا للمثالــب والنقائــص، فقد ذكر في مواقف عديدة مشــاهد منصفة وعادلة، مــن ذلك ما تعلّق بمســألة انتحال صفة النبوّة، وخديعة اصطناع الوحي ودجل محمّد ﷺ فقد وضّح الكاتب أنّ الكثير من القضايا المذكورة في هذا الباب منسوبة له من رواة ومؤرّخين ومتعصّبين ومناهضين أرادوا تشــويه صورته ورســالته «والســؤال المطروح الآن: هل محمّد هو الدجّال الوقح الذي قيل؟ هل كانت كلّ رؤاه وآياته الكثيرة أكاذيب مقصودة؟ وأنّ نظامه كلّه نســيج من الخداع؟ فعند النظر في هذا التّساؤل، لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنّه ليس مسؤولًا عن كثير من المبالغات والأقاويل التي قيلت باسمه، فالعديد من الرؤى والإيحاءات المنسوبة إليه ملفّقة»[2].

ويشــير إلى أنّ الســنّة وحياة محمّد ﷺ تعرّضتا أثناء فترات التّدوين والرواية الشــفهيّة إلى التّحريف، بالزيادة والنقصان، ممّا فســح المجال للخرافات والأســاطير بالتموقع والظهور في العديد مــن المواضع والأحداث «إنّ الوثائــق المكتوبة حول حياة محمّد، مشــبّعة بالتّحريفات والتّغييرات، وســيرته مشــوّهة بالخرافات والأســاطير، وهذا يعيق الوصول إلى معرفة حقيقة شخصيّته وسلوكيّاته»[3].

وربّما تتجلّى عظمة محمّد ﷺ في خلاصة السيرة، فهو رغم الانتصارات ونجاح الفتوحات

1. Ibid, 44.
2. Ibid, 344.
3. Ibid.

وكثـرة أموال الجزية والخـراج، فقد التزم بالأخلاق السـامية من تواضـع ومحبّة للآخرين «لم توقظ فيه الانتصارات العسكريّة كبرياء ولا غرورًا، كما كان سيحدث لو كانت رسالته بدوافع شخصيّة. لقد احتفظ بالبساطة في زمن سلطته القويّة، وكان بعيد التأثّر بالفخامة الملكيّة، وكان يمقـت المبالغة في المدح، تجلّت رسـالته في تعميـم الإيمان والعقيدة... وكانـت ثروات الجزية وغنائم الحرب تذهب لتجهيز انتصارات جيش العقيدة وفقراء المسلمين»[1].

٣. هنري دولابورت «حياة محمّد، من القرآن والمؤرّخين العرب» (Vie de Mahomet, daprès le Coran et les historiens arabes, par P-Henry Delaporte).

منجِز هذه السـيرة باسيفيك هنري دولابورت (Pacifique-HenriDelaporte) (١٨١٦-١٨٧٧م) الدبلومـاسيّ الفرنـسيّ المولود بطرابلس، وابن المسـتشرق جاك دونيس دولابورت (Jacques-Denis Delaporte) (١٧٧٧-١٨٦١م) وتجسّـد هـذه السـيرة أيضًا مركزيّة ذهنيّة نمطيّة في طرحها ومنهج معالجتها لأحداث سيرة المصطفى وأبرز محطّاتها في تبليغ الدعوة، فقد أهملت الجوانب الروحيّة والعقائديّة التي جاءت بها الرسالة المحمّديّة من حيث مبدأ جوهريّ يتمثّل في إخراج البشريّة من التعدّدية الوثنيّة والشرك المركب إلى الوحدانيّة والتوحيد.

فكثير من الصور جاءت مشوَّشـة وملتبسة وغير واضحة، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى اعتـماد الكاتب على مرجعيّات متناقضـة، موزّعة بين الإنكار والجحـود والإقرار والاعتراف المشروط بتحفّظات تدلّ على التخبّط المعرفيّ والتاريخيّ والعقائديّ.

فأغلب السـير التي استند عليها المؤلّف كمراجع تعتبر محمّدًا دجّالًا، ودينه عبارة عن جملة من الاقتباسات السماويّة القديمة، التي وظّفها بذكاء ودقّة خدمة لأغراضه السلطويّة التوسعيّة ورغباته العدوانيّة «لم يخترع مؤرّخو حياة «محمّد» الأحداث، لكنّهم يروون أخبارًا اسـتعاروها من المؤرّخين العرب ومن الوثائق المعتمدة، ومن هذه المصادر رسمنا أنفسنا»[2].

والمقصود بمؤرّخي سيرة الرسول الأعظم المستشرق الفرنسيّ جون غارنيه (Jean Gagni-

1. Ibid, 352-353.

2. Delaporte, Vie de Mahomet, D'après le Coran et les Historiens Arabes, 2.

er) (١٦٧٠–١٧٤٠م) صاحب كتاب «سيرة محمّد» (١٧٣٢) والمستشرق الإنجليزيّ همفري بريدو (Humphrey Prideaux) (١٦٤٨–١٧٢٤م) صاحب سيرة «حياة محمّد» الذي اتهمه في عنوانها بالدجل والخديعة (The True Nature of Imposture fully display'd in the Life of Mahomet ou Lifeof Mahomet) سنة ١٦٩٧ وهنري دي بولانفيلييه (Henri de Boulainvilliers) (١٦٥٨–١٧٢٢م) صاحب كتاب (سيرة محمّد، مع تأمّلات في الدين المحمّدي، وعادات المسلمين) (La Vie de Mahomed; avec des réflexions sur la religion mahometane, & les coutumes des musulmans) (١٧٣٠م) والذي جاء في مقدّمته «إنّ (محمّد) هو مؤسّس الإمبراطوريّة الأوسع والأكثر رعبًا من الإمبراطوريّتين المقدونيّة والرومانيّة، وهو أوّل ملك للعرب بفضل ابتداعه لدين جديد»[1]. وجورج سال (George Sale) (١٦٩٧–١٧٣٦م) الذي قدّم ترجمة للقرآن الكريم سنة ١٧٣٤م، مبتدئًا بتنبيه للقرّاء من خطورة هذا الكتاب الذي يحمل أفكار العنف والقتل والتثوير، وأنّ «هناك أدلّة مقنعة بأنّ المحمّديّة لم تكن سوى اختراع بشريّ، وأنّها تدين بتقدّمها وتأسيسها بالكامل للسيف، وهي صورة أصليّة للمسيحيّة، وبقوّة السيف استطاعت السيطرة على العالم»[2].

شكّلت هذه النماذج أرضيّة للكاتب لبناء كتابه وتنضيد فصوله وأبوابه، فجاءت معلوماته معهودة ومتداولة من عمليّات التكرار، من ذلك نسبة القرآن الكريم للرسول الكريم.

بعض أفكار السيرة امتداد لموروث غربيّ كثير التداول والحضور في الكتابات التحليليّة والتوثيقيّة لحياة الرسول ﷺ منها نزعه صفة الألوهيّة عن القرآن والاعتقاد بأنّه تأليف بشريّ «لم يكن مؤلّف القرآن أقلّ جدارة بالثناء من ناحية الصفات الاجتماعيّة»[3].

فالتناقض سمة من سمات الخطاب مزدوج المرجعيّة، لم يتمكّن الباحث من التحرّر من مخلّفات المركزيّة، فهو يؤمن ببشريّة القرآن وتعاليمه، وفي الوقت نفسه يعدّد مزايا محمّد

1. Boulainvilliers, La Vie de Mahomed, 5.
2. Sale, The Alcoran of Mohammed, 40.
3. Delaporte, Vie de Mahomet, d'après le Coran et les historiens arabes, 30-31.

الأخلاقيّة التي تتجاوز أطر الصفات والمزايا الطبيعيّة بتسامي قيمها وعلوّها «سكنت المشاعر النبيّلة والسخيّة قلبه، فقد شوهد وهو يبكي على موت صديق في لحظة ضعف لنبيّ مرسل من الله»[1].

فالجمع بين «مؤلّف القرآن» و«نبي مرسل من الله» معادلة توحي بالتخبّط المعرفيّ والتشويش المنهجيّ، ممّا دفع بالكاتب إلى التناقض في مواطن عديدة من سيرته.

على الرغم من انتقاد الكاتب لمناهج التأليف في السيرة عند العرب والغرب، فقد مال العرب إلى المبالغة وتكثيف المادّة السرديّة، والتي غالبًا ما تتّسم بالدعم من الخرافات والأساطير والاستناد إلى الأساليب المدحيّة، في حين مالت المصنّفات الغربيّة إلى ترويج المغالطات وتكذيب الوحي، إلّا أنّ الكاتب نفسه قد يسقط في إعادة بعض الشبهات «تقدّم حياة محمّد العديد من الميّزات التي تمّ استعارتها بوضوح من الكتب المقدّسة للمسيحيّين، والتي أوردها علماء الدين المسلمون لتعويض ندرة الأخبار الأوّليّة وعقم الأساطير في الكشف عن العجائبيّ والأحداث الخارقة والسطحيّة»[2].

بمقارنة هذه السيرة مع نسخ ونماذج مماثلة في التاريخ لسيرة المصطفى ﷺ، فإنّه يمكن استصدار حكم أوليّ بأنّها تمتاز بنسبة مرتفعة من المصداقيّة من حيث الطرح والمقاربة وسرد الأحداث وتأويلها، كما أنّها مالت إلى تجنّب وتجاوز كلّ ما يطعن في نبوّة محمّد ﷺ ويشيع عنه أوصاف الكذب وحبّ السلطة والدم مع تخليد صفاته وأخلاقه من صدق وسخاء وسماحة.

٤. فولتير: من «محمّد» (المعتصّب) إلى النبيّ الأمين

اشتهر فولتير (Voltaire) (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) منظّر الحرّيّة والإصلاح الاجتماعيّ للثورة الفرنسيّة بالدفاع عن حريّة المعتقد والإيمان، وقد ارتكزت أعماله على انتقاد دوغمائيّة الكنيسة الكاثوليكيّة، رافضًا جمودها الفكريّ وتعصّبها المذهبيّ. وقد درس كمفكّر تنويريّ مسائل العقيدة للأديان السماويّة، منتقدًا مفاهيمها للكون والوجود، والألوهيّة والتّشريع وغيرها من

1. Ibid, 31.
2. Ibid, 6.

القضايا الفلسفيّة الوجوديّة، ممّا سبّب له عداوات وصراعات متعدّدة ومتنوّعة، خاصّة مع رجال الدين.

فقد اعتبر الكتاب المقدّس مرجعًا قانونيًّا وأخلاقيًّا، أمّا اليهوديّة، فقد شكّك في وجود موسى عليه السلام واعتبر وجوده أسطورة.

وقد اتّخذ موقفًا حادًّا وعدائيًّا من الإسلام، معتبرًا القرآن الكريم اختراعًا محمّديًّا، بعد اطّلاعه على ترجمته الإنجليزيّة التي أنجزها جورج سال.

ألّف فولتير مسرحيّة بعنوان: التعصّب أو النبيّ محمّد (Le fanatisme ou Mahomet lep-rophète) سنة ١٧٣٩، وتمّ تقديمها لأوّل مرّة على مسرح مدينة ليل (Lille) سنة ١٧٤١، ثم في باريس (Paris) سنة ١٧٤٢ قبل منعها من البرلمان الفرنسيّ.

أفكار المسرحيّة معهودة ومتداولة في المنظومة الفكريّة الفرنسيّة خاصّة، والغربيّة عامّة، فهي لا تعدو أن تكون تكرارًا لأفكار نكران النبويّة وقداستها، مع التأكيد على اقتران الإسلام ورسالته بالعنف والقتل وحبّ التوسّع والسبي والسرقة وغيرها.

تتوزّع مشاهد المسرحيّة على خمسة مشاهد، ويتقاسم البطولة والحوار ستّة ممثلين، بمصاحبة فرقتين (مكّيّة وإسلاميّة) في حين لم تتجاوز مضامين الحوارات مواضيع الدجل والعنف والتقوّل والكذب والخداع.

إنّ أبرز أفكار المسرحيّة تضمّنتها المقدّمة، فالمقدّمة حملت إهداء الكاتب لجلالة ملك بروسيا[1]، وفيها المسرحيّ وتوجّهاته ومعتقداته ومواقفه من محمّد ﷺ ورسالته، وقد بدأها بعبارة استفزازيّة «إذا كانت أعين الحجاج تتّجه نحو هذه المدينة (الكعبة) فإنّ عيوني تشرئب نحو فنائكم»[2] ويؤكّد أنّه حريص على تخليص البشريّة وإرشادها لمخاطر محمّد، فإنّ دافعه لكتابة

١. جاء في العديد من المراجع أنّ المقصود بملك بروسيا هو بنيدكت الرابع عشر، BenedictXIV (١٦٧٥–١٧٥٨م) وهو بابا الكنيسة الكاثوليكيّة بين ١٧٤٠ – ١٧٥٨، بينما تذهب مراسلات فولتير (Correspondance) لسنة ١٧٤٠ وفي رسالة تحمل رقم ١٣٨٩، أنّ الإهداء كان لملك بروسيا فريديريك الثاني من ١٧٤٠ – ١٧٧٢. ينظر:
Voltaire, "Correspondance Année 1740", 557, 561.

2. Voltaire, Le Fanatisme ou Mahomet le Prophète, 4.

هذه التراجيديا هو «حبّ النوع الإنسانيّ والفرع من التعصّب»[1]، ثمّ يعتذر من الجمهور لأنّه يعرض عليهم مشاهد التعصّب، ومؤامرات «محمّد» تحت أقنعة الدين وشعارات الخير والسلم؛ لذلك فلم يكتف بعرض سيرته منفصلة عن أخلاقه وتشريعاته الدمويّة «لم أدَّع أنّني أعرض فقط الفعل الحقيقيّ على المسرح، ولكنّ الأخلاق الحقيقيّة لجعل الناس يفكّرون في الظروف التي يمكن أن يجدوا أنفسهم فيها، وأخيرًا لتصوّر أبشع الخداع الذي اخترعه، وفظاعة تعصّبه. وما محمّد هنا سوى طارطوف[2] بأسلحة في يده»[3].

منعطف حاسم وتصويب مسار فكريّ جذريّ حدث لمسيرة فولتير الفكريّة، فقد انطلق من الإنكار والقدح والقذف للأديان عامّة، بتجريدها من القداسة والأبعاد السماويّة وتسفيه عقائدها وشرائعها والاستخفاف برسلها وتكذيبهم واتّهامهم بالدجل وممارسة الخديعة، ليتحوّل إلى معترف ومادح ومنصف.

وقد نال محمّد ﷺ نصيبًا وافرًا من التحقير والسخرية في مسرحية «التعصّب أو النبيّ محمّد» لينتقل في مراجعة معرفيّة إلى الإقرار ببدائل وتصويبات، جعلت من فلسفته نموذجًا للموضوعيّة والاعتدال لفيلسوف تنويريّ اهتدى بفضل أبحاثه واستطلاعاته التاريخيّة إلى تصحيح انحرافاته الفكريّة، التي تبنّاها لأسباب موضوعيّة وذاتيّة.

وكانت شهادته حول موثوقيّة السيرة النبويّة وشموليّتها أوّل تزكية قدّمها فولتير، وكانت محورًا مركزيًّا لتحولّاته الفكريّة «لا يوجد أحد من المشرّعين أو الفاتحين كتبت سيرته بنسبة عالية من المصداقيّة والتفصيل من معاصريه كحياة محمّد»[4]. ويُعيد مكانة العرب وموقعها بين الأمم والحضارات والثقافات إلى محمّد ﷺ فهو الذي ضحّى من أجل إنجاح دعوة التوحيد، وترسيخ القيم الإنسانيّة النبيّلة والراقية «إنّ عبقريّة الشعب العربيّ ترجع إلى محمّد بمفرده، فهو الذي

1. Ibid, 4.

٢. إشارة إلى مسرحية الكاتب الفرنسيّ موليير (Molière) (١٦٢٢-١٦٧٣م) الموسومة بـ(طرطوف أو الدجال) (Le Tartuffe ou l›Imposteur) (١٦٦٩) وتطرح مسألة النفاق الاجتماعي والتستّر بأقنعة الدين.

3. Ibid, 7.

4. Voltaire, Essai Sur les Moeurs et L’esprit des Nations, 244.

بدأها منذ ثلاثة قرون، وهي مسيرة تشبه عبقريّة الرومان القدماء»[١].

وقد كانت مواقفه ومراجعاته سببًا في إعادة قراءة أفكاره وتأويل اعترافاته، خاصّة مواقفه من الرسول محمّدﷺ إلى درجة أن اعتبره بعضٌ «أوّل يساريّ مسلم»[٢].

وتساءل آخرون مكتشفين جهلهم به بعد كتاباته المتعلّقة بالإسلام، وهو الفيلسوف التنويريّ الذي له تأثيره في النخب الثقافيّة والسياسيّة. ففي فصل (هل هو عنصريّ أم إنسانيّ) يجيب مؤلّفًا كتاب (من أنتم السيّد فولتير) (Qui êtes-vous Monsieur Voltaire)[٣] بأنّه يسعى ككلّ مثقّف تنويريّ الوصول إلى الحقيقة وإدراكها من خلال التناقضات والأطروحات الجدليّة للوصول إلى اليقين.

أنتجت عقلانيّة «فولتير» منهجًا علميًّا موضوعيًّا يجسّد رحلة البحث عن الحقيقة، فقد كانت آراؤه ومواقفه وتصوّراته حول الأديان عامّة ورسول الإسلام خاصّة أرضيّة لتحرير العقل من الهوى والانتماءات الأيديولوجيّة.

والبحث عن الحقيقة في التاريخ والعلوم الإنسانيّة عمليّة شاقة تتطلّب الدقّة والإرادة والشجاعة لاتّخاذ القرارات وتعديل المواقف، خاصّة إذا تعلّق الأمر بديانة مغايرة وبشخصيّة تنويريّة ذات نفوذ أكاديميّ وتشريعيّ «خيّم الجهل منذ زمن بأنّ نساء إماء (مفرد أَمَة) عند المسلمين طوال حياتهنّ، ولا يدخلن الجنّة بعد وفاتهنّ. وقد كرّسنا هذين الخطأين على المسلمين، والحقيقة أنّ زوجات المسلمين لسن إماء»[٤].

ولعلّ خلاصة أفكاره حول محمّدﷺ والمسلمين، هي ما أثبته تقريرًا مباشرًا في معجمه الفلسفيّ في صيغة تحدّيات للرهبان والقساوسة عن تشريعات الإسلام وإيمان المسلمين بها. فهو يرى أنّها تضحيات إيمانيّة لا يمكن أن تتحقّق أو تُنجز إلّا ضمن عقيدة وفطرة سليمة «أقول لكم مرّة أخرى، أيّها الجهلاء الحمقى، الذين جعلهم الجهلاء يعتقدون أنّ الدين المحمّديّ

1. Ibid, 254.
2. Tolan, "Voltaire, Premier Islamo-Gauchiste de L'histoire?".
3. Dupont, &Lesourd, Qui êtes-vous Monsieur Voltaire?.
4. Voltaire, Dictionnaire Philosophique.

شهوانيّ وحسّيّ، ليس كذلك؛ لقد تمّ خداعكم في هذه النقطة كما هو الحال في العديد من النقاط الأخرى، أيّها الكنسيّون والرهبان والكهنة ماذا لو منعوكم من الطعام والشراب من الرابعة صباحًا إلى العاشرة ليلًا في شهر جويليه (تموز) وهو شهر الصيام؟ ماذا لو منعوك من ألعاب الحظّ تحت وطأة عقوبة اللعنة؟ وماذا لو منعوك من شرب الخمر لنفس العقوبة؟ ماذا لو طلب منك أداء فريضة الحجّ في صحراء ملتهبة؟ وماذا لو طلب منك دفع اثنين ونصف من دخلك للفقراء؟ وماذا لو كنت مستمتعًا بثمانية عشر امرأة وطلب منك الانفصال عنهنّ، وإبقاء أربعة فقط عن حسن نيّة؟ فهل تجرؤ على تسمية هذا الدين بأنّه حسّيّ؟»[1].

ثالثًا: محمّدﷺ في مؤلّفات لامرتين؛ من الدعوة إلى العظمة

١. محمّدﷺ في رحلة الشرق للامرتين

تميّزت قرون التنوير الغربيّ بالرحلة نحو المشرق، فتعدّدت الرحلات وتنوّعت لاكتشاف فضاءاته السحريّة والعجائبيّة والروحيّة، بينما تباين النوايا والأهداف والغايات، فحملت أبعادًا دينيّة وثقافيّة وأدبيّة.

فقد تشكّل «الشرق» في المخيال الغربيّ وفق منظومة مركزيّة تحمل وتؤمن برؤيتها الذاتيّة حول المثاقفة والغيريّة. فجدليّة الأنا والآخر تأسّست وتأصّلت من صراع المركز والهامش، فالمركز تؤثّثه أوروبا بقوّتها وثقافتها وقيمها، في حين بقي الهامش رهين صورته النمطيّة القديمة التي تهندسها وتهيكلها سلبيّات التخلّف والبربريّة والوحشيّة.

وضمن رحلات الشرق (Les Voyages en Orient) انفردت وتميّزت رحلة ألفونس دو لامرتين (Alphonse de Lamartine) (١٧٩٠-١٨٦٩م) الموسومة بـ(رحلة إلى الشرق) (Voy-age en Orient) (١٨٣٥م) فكانت فتحًا جديدًا في تقنيّات الكتابة الرحليّة، فهي ليست سردًا توثيقيًّا لكرونولوجيا الأحداث، ووصفًا سطحيًّا لجماليّات المكان، فقد أبحر الكاتب في تاريخ المجتمعات الشرقيّة مفكّكًا ثقافتها وعقائدها.

فاستعراض مضمون الرحلة بجزأيها، نعثر على شهادات عادلة ومنصفة للإسلام ورسوله

1. Ibid, 1537.

الكريـم، من مفكّر وشـاعر ومؤرّخ، شـكّل بحضوره الإبداعـيّ نموذجًـا للمثقّف الواعي والسـياسيّ المناضل (شـارك لامرتين في إعلان الجمهوريّة الثانية). فقـد اعتبر جازمًا، متحدّيًا المركزيّات ومنظوماتها الفكريّة والعقائديّة بأنّ الرسول «لم يدَّعِ محمّد الألوهيّة، فهو رجل متشبّع بروح الله فقط، كما أنّه لم يدعُ إلّا لوحدانيّة الله ومحبّة الناس»[1].

كان هذا الإقرار قطيعة مع الموروث الغربيّ وتصوّراته للإسلام، ممّا دفعه إلى تمحيص مبادئ القرآن لتصويب رؤى وتمثُّلات عششت في المخيال والوعي الجمعيّ الأوروبيّ «يجب أن ننصف ديانة محمّد، إنّها عبادة فلسـفيّة تفرض واجبين كبيرين على الإنسـان؛ الصلاة والصدقة. هاتان الفكرتان العظيمتان هما في الحقيقة أسـمى القيم في كلّ دين، وينادي الإسلام أيضًا بالتسامح، وهي قيمة تفرّد بها بين الأديان»[2].

ويفنّـد لامرتين ادّعاءات كتّاب العصر الوسـيط في رميهم محمّدًا ﷺ بتهم التوسّـع وحبّ السـلطة، وهـي المغالطات والشـبهات التـي تكـرّرت في كلّ الكتابات المفـسّرة للفتوحات الإسلاميّة، وهي عبارة عن صفات جاهزة وأفكار سطحيّة ومرتجلة، فرسالة الإسلام لا تتجاوز عبادات خالصة لله كمتفرّد بالوحدانيّة والعبادة دون سواه «كان محمّد يدعو القبائل البربريّة التي تشرك بالله في شكل عبادات بسيطة إلى عيد سنويّ ووضوء وخمس صلوات موزّعة على اليوم، كما ترتكز عقيدته على أنّ الله هو الخالق والمُكافئ»[3].

تكشـف شـهادة لامرتين ومواقفه حول الإسـلام عن ذات واعية باحثـة، فقد قارن بين مضامين القرآن والأساطير القديمة والمعجزات المتداولة في الديانات الأخرى بمختلف مللها ونحلها، ليخلص إلى أنّ الإسلام بريء ومنزّه عن الكثير من السرديّات والمرويّات المنسوبة إليه «اختلطت برسـالة محمّد ذكر بعض الأحداث والمعجزات، ولكنّها أساطير إسلاميّة ليست من جوهر الدين، ولا يقرّها إلّا الأتراك (المسلمون) المستنيرون. ولكلّ الأديان أساطيرها وتقاليدها

1. Lamartine, voyage en Orient, 73.
2. Ibid, pp.15-16.
3. Ibid, 196.

الفلسفيّة الغامضة، وتنأى الديانة المحمّديّة الصافية عن هذه المغالطات الفظّة»[1].

٢. محمّد في كتاب «عظماء رجال الشرق»

أ. المدوّنة

كانــت عتبة العنوان «رجال الشرق العظماء» (Les grands hommes de l'Orient) صدمة معرفيّة للمركزيّــة الثقافيّة، التي تعتقد بأنّ الكمال المعــرفيّ والعبقريّة والعظمة صفات للرجل الأبيض؛ لإيمانها بالتفاوت الذكائيّ بين الأعراق والأجناس، فصفات التفوّق والتميّز والتفرّد ســمات محتكرة لمجتمعها وحضارتها، أمّا «الآخر/ المختلف» فهو رمز للشعوذة والروحانيّات الخرافيّة والوحشيّة والشهوانيّة.

وجاء الكتاب كرسالة ذات محمولات دلاليّة متعدّدة، منها محاربة الإقصاء والصور النمطيّة والأفكار المســبقة التي تشكّلت وصنعت صورة الرسول ﷺ، فهي إعلان وبيان يؤكّد التكامل الإنساني في ميدان الحضارة والثقافة، مفنّدًا فكرة النقاء، باعتبارها من الأوهام التي تسكن عقول التعصّب وفكر العنصريّة.

يقع الكتــاب في زهاء أربعمئة صفحة، متوزّعة على ثلاث شــخصيّات، اعتبرهم لامرتين عظــماء الــشرق، دون تعليل أو توضيح يفسّر ويــبرّر ويعلّل الاختيارات، وهــم نبيّ الله محمّد ﷺ والقائد المغــولي تيمورلنــك (Tamerlan) (١٣٣٦-١٤٠٥م) الفاتح التركيّ المغوليّ الذي أسّس الإمبراطوريّة التيموريّة في أفغانستان الحديثة وإيران وآسيا الوسطى وما حولها، وأصبح أوّل حاكم من الســلالة التيموريّة، والســلطان التركيّ جَم وبالتركيّــة (Cem Sultan) (٨٦٤-٩٠٠هـ/ ١٤٥٩-١٤٩٥م) وهو أمير عثمانيّ ابن السلطان محمّد الفاتح المعروف عند الفرنجة باسم «زيزيم» (Zizim).

وقد صنّف الكاتب شخصيّاته مبتعدًا عن تقديم القرائن والمبرّرات الحجاجيّة لإقناع المتلقّي

1. Ibid, 472.

بالعظمة، فالعلاقة الجامعة بين الشـخصيّات الثلاث تكاد تنعدم من حيث الرسـالة والوظيفة والتكوين والبنية العقائديّة.

يعتبر هذا الكتاب من الناحية المنهجيّة تكملة لمشروعه حول صنّاع الحضارة في العالم من أدباء وقادة ومؤرّخين ومفكّرين وفلاسفة، والذين صنّفهم لامرتين بأنّهم مؤسّسو صرح الحضارات الإنسانيّة. نشر لامرتين كتابه الموسوم بـ «الحضاريّ؛ تاريخ الإنسانيّة من خلال عظماء الرجال» (Le Civilisateur, Histoire de l'humanité par les grands hommes) وقد قسّـمه إلى ثلاثة أقسام صدرت في ثلاثة أجزاء متتالية، حيث صدر الجزء الأوّل سنة ١٨٥٢، وخصّصه للفاتحين والمقاتلـين وزعـماء التاريخ، ومنهم جان دارك وكريسـتوف كولمبـس وهوميروس وغيرهم، وتناول الجزء الثاني (١٨٥٣م) الفلاسـفة والأدباء، ومنهم سقراط وكروميل، واستعرض في الجزء الثالث (١٨٥٤م) حياة ومواقف بعض الشعراء، ومنهم ميلتون، وشهد هذا الجزء وجود الشاعر الجاهليّ عنترة.

وقد ذكر أنّ كتاب محمّد من ضمن الكتب العالميّة التي أسّست للحضارة «تتلخّص الحضارة كما روتها الإنسـانيّة في تظاهرة واحدة هي: الكتاب، وما الكون إلّا مجموعة من الأناجيل. كان لزرادشـت، وموسى، وكونفوشـيوس، ومحمّد كتب احتوت حضارات وأخلاق وتشريعات وفلسفات وعقائد ولاهوت، وكلّها يسعى لاحتواء العالم، وسوف يخضع العالم للكتاب الأكثر قداسة وإنسانيّة»[1].

يتميّز لامرتين في تدوينه لسـيرة الرسـول ﷺ المقتضبة، والتي انتقـى بعض الجزئيّات منها للتأكيـد على عظمته وتميّزه وتفرّده، على أسـلوب فلسـفيّ تحليليّ، تجاوز فيـه التوثيق والسرد التقريريّ المباشر، بالإضافة إلى ابتعاده عن استحضار المواقف الجدليّة والمشاهد المختلف حولها قولًا وحدثًا في مصنّفات مؤرّخي السيرة النبويّة العربيّة.

فجاءت السيرة في شكل مقالات مبوّبة باستقلاليّة موضوعاتيّة، ضمّنها الكاتب ما استوقفه

1. Lamartine, Le Civilisateur: Histoire De L'humanité Par Les Grands Hommes, 551.

من صفات ومزايا ومواقف استنبط منها عظمة محمّد ﷺ.

ب. رجل الدولة؛ الجامع الموحّد

لعلّ معالم العظمة الأولى التي أثارت الكاتب فافتتح بها حديثه عن الرسول ﷺ تنطلق من توحيده لشتات شعوب وقبائل متناثرة ومتقاتلة في شبه جزيرة العرب، لا يجمعها دين ولا عقيدة، ولا يحكمها تشريع بعينه، فدياناتهم وعباداتهم عبارة عن طقوس متنوّعة، لا تستند إلى عقيدة سماويّة، فهي معتقدات متوارثة تجمع بين التراث الشعبيّ الفولكلوريّ وبين أساطير وخرافات قديمة مجسّدة في هيئة أصنام تُعبد وتُقدّم لها القرابين «لم يكن العرب قطّ شعبًا، فهم مجموعة من السكّان والقبائل والأسر وحشود أخرى كثيرة، بعضهم مدنيّون وأغلبهم من الرحّل... القبائل الرئيسيّة كثيرة العدد، وهي ثريّة بالأراضي وقطعان المواشي، وهم مشهورون بالحرب»[1].

وسط هذا الفضاء الوثنيّ ومناخ الشرك المركّب، جاء التحدّي الأوّل لمحمّد ﷺ في جمع العرب وسكّان الجزيرة حول دين واحد، فكان هذا الرهان رسالته الجوهريّة ومركزها المحوريّ، الذي يتمثّل في إخراج الناس من التعدّديّة الوثنيّة إلى التوحيد.

ترتبط فلسفة إقامة الدولة بالقيادة الراشدة والحكامة التشريعيّة التي تراعي المقاصد، وتحرص على حماية العقل والمال والنسل والنفس، فاتّزان شخصيّة القائد وتوازن مختلف جوانبها السيكولوجيّة والسوسيو-ثقافيّة سبيل لاكتساب ثقة الرعيّة، ممّا يسهّل مسؤوليّات التسيير والتوجيه والإرشاد والتخطيط.

ولقد كانت شخصيّة محمّد ﷺ مؤهّلة للقيادة بصفاء السريرة ونقاء الروح وتجاوز العداوات والإساءات، بالتسامح بعيدًا عن الحقد والانتقام، حتّى ارتبطت رسالته بهذه القيمة «لقد عفا محمّد عفوًا عامًّا، متجاهلًا كلّ التّهم والشتائم الشخصيّة التي تعرّض لها»[2].

حارب محمّد ﷺ خطاب الكراهية بالحجّة والبيّنة، فانتصر بالقيم الفاضلة من تسامح منبثق

1. Lamartine, Les grands hommes de l'Orient: Mahomet, Tamerlan, le sultan Zizim, 3.

٢. مالك بن أنس، المدونة، ١٤٥.

من قوّة المنتصر، فلم يلجأ إلى الانتقام والمعاملة بالمثل في ردّ العداوة بإراقة الدماء، بل جعل من أخلاق الإحسان والتسامح والعفو سبلًا في السيطرة على العقول والقلوب «لقد ضرب محمّد مثالًا على الشهامة الخارقة تجاه أولئك الذين آذوه في الصميم»[١].

شخصيّة المبعوث المربّي دفعت به إلى تعميم صفة التّسامح على أصحابه ليكونوا صدى ونموذجًا لتعليمه وتشريعه، فمنعهم ممّا منع منه نفسه، فنهى أحد قادته عن التهديد بالقتل؛ لأنّ رسالته هي دعوة للتّسامح والإخاء والسلم، واضطر إلى إقالته «أراد محمّد أن ينتصر دون إراقة الدماء، لذلك أقال أحد قادة جيشه حين نادى «اليوم يوم المذبحة»»[٢].

لم يسع النبيّ ﷺ إلى صناعة مجد شخصيّ أو تحقيق سلطة سياسيّة تمكّنه من الرئاسة والقيادة، لأهداف وغايات سلطويّة دنيويّة، فرسالته تجلّت في تمكين دين الله من النفوس وتحريرها من المادّة إلى الروح السامية، وهذا الهدف لا يتحقّق بالإرغام والإكراه، وهذا دفع بالرسالة إلى توظيف وسائل الإقناع والتدرّج في التشريع والدعوة إلى تسهيل عمليّات الانتقال من الوثنيّة والشرك إلى التوحيد «أراد أن يؤسّس دينًا وليس سلالة ملكيّة، فالأديان إمبراطوريّات النفوس الأزليّة، وهي لا تقام بالسلاح ولكن بالأفكار. فأفكار محمّد التي ينادي بها يجب أن تتوافق مع تقاليد مواطنيه، متناسبة مع طقوسهم المحليّة، فكلّ دين جديد يتأسّس على أنقاض عبادة قديمة. نقبل الهيكل ونغيّر الإله»[٣].

وتجلّت أخلاق القائد المنتصر عند دخول مكّة أثناء الفتح التاريخيّ، فكان انتصار القيم أكثر إشراقًا من التفوّق العسكريّ، فتمّت المحافظة على العهود واحترام عقائد الأقلّيّات وتقديس البيئة ومظاهرها، فكانت معاملة سكّانها بالرفق والتسامح والمودّة، وتجاوزت المعاملة حدود منطق المنتصر من خلال مراعاة الحالة النفسيّة للمنهزمين، فاعتبرهم الرسول ﷺ منتصرين، مبتعدًا عن كلّ ما يخدش الكرامة الإنسانيّة، ومكرهًا من الانتقام، ومنفّرًا من مظاهر الإهانة

١. م. ن، ١٤٦.
٢. م. ن، ١٤٣.
٣. م. ن، ١٣٤.

والاحتقار «أبرم هدنة مع القرشـيّين لمدّة عشر سنوات، شبيهة بهدنة هنري الرابع عندما دخل باريـس، ولكنّه تعامل مع المهزومين، كأنّهم منتصريـن، والمنتصرين كأنّهم مهزومين، وفي ظلّ انتصاره السـلميّ دخل مكّة أمام قوّاتـه المهيبة، التي تمرّ قرب المعبـد (الكعبة) وأمام مواطنيه المنبهرين، ولم يغيّر رأيه حتّى تحت همسات (تحريضات) جيشه»[1].

ت. النبيّ؛ الزوج الوفيّ

لم يتعرّض لامرتين لزوجات النبيّ ﷺ كما هو معهود ومتداول في المنظومة الفكريّة الغربيّة، بشقّيها الاستشراقيّ والتنويريّ، فقد دأبت الأدبيّات الثقافيّة الغربيّة على التأليف والتصنيف في موضوع حياة الرسول العائليّة بإثارة الشبهات حول عدد زوجاته، وتعليل ذلك بتأويل فرويديّ يؤصّل للشهوانيّة وحبّ الجنس والنزوات الغرائزيّة وما إليها من المقاربات التي تذهب لتحقيق غايات محدّدة متمثّلة في إساءات باطلة للمصطفى.

تعتبر شهادة لامرتين حول وفاء الرسـول محمّدﷺ لزوجته خديجة (رضي الله عنها) ميثاقًا وبيانًا يوثّق حقيقة الأسرة وبنيتها وقداسـتها في الإسـلام باعتبارها نواة بناء المجتمع. فالذات الراقيـة البعيدة عن الشـهوانيّة هي الذات التي تقرّ بالجميل وتعترف بالتضحية والمسـاندة مع بدايات الدعوة وتكالب المشركين.

فعلى الرغم من تعدّد زوجاته، إلّا أنّه بقي وفيًّا لخديجة، فهو لا يدّخر جهدًا في ذكرها أو زيارة قبرها وترديد مآثرها وتعداد فضائلها «بعد انتهائه من أعمال السيادة الدنيويّة والإلهيّة، اتجه نحو قـبر زوجته الفاضلة الأولى خديجة، بقي جاثمًا على قبرها لفترة طويلة، غارقًا في تأمّل، ولم يجرؤ أحد على سؤاله أو مقاطعته، ولم يتمكّن أحد من إدراك مشاعره الباطنيّة ولا قياس أحزانه، فقد وضع انتصاراته وأفراحه على قبر أوّل من آمن به في زمن الشكّ»[2].

لم يخف لامرتين إقراره بحبّ الرسولﷺ لخديجة (رضي الله عنها)، ويؤكّد أن موضوع هذه العاطفة مسـألة وقضيّة مشتركة في جميع السـير التي تناولت حياته، فهي التي آزرته وساعدته

١. م. ن، ١٣٧.

٢. م. ن، ١٤٧.

وآمنت به وتعاونت معه وكانت سنده، فكان زوجًا فاضلًا، راقيًا في معاملاته، وكما أن كان خيرًا لأمّته، حريصًا على تخليصها من الشرك والنار، فقد كان زوجًا وفيًّا لها في حياتها، حزينًا كئيبًا على فراقها، «ولكن سرعان ما كلّفه موت رفيقة إيمانه وسعادته ومحنته، المزيد من الدموع المرّة. ماتت زوجته الوحيدة، الغالية خديجة على إيمانها وحبّها للنبيّ. لقد استولى الحزن والإحباط على الرسول مرّة ثانية»[١].

ولإيمانه ﷺ بقيمة الأسرة باعتبارها نواة بناة المجتمع والأمّة، فقد كان منسجمًا مع زوجه، بينهما مودّة ورحمة، مبتعدًا عن شبهات الطمع في ثرائها ومالها كما ادّعت بعض الدراسات الاستشراقيّة أو العلمانيّة، فقد وضّح لامرتين تعامل الرسول محمّد ﷺ مع مالها الخاصّ «عاش محمّد وخديجة متّحدين في القلب، ولكنّهما منفصلان دائمًا في الممتلكات وفقًا لأعراف الزواج في الصحراء، في وفاء مثاليّ، وظلّ محمّد يحظى من زوجته التي تكبره سنًّا باحترام الابن وحنان الزوج»[٢].

ولإحداث التوازن الاجتماعيّ والأسريّ حثَّ الرسول ﷺ على تطبيق قوانين المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وهو الموقف الذي ثبَّته لامرتين في كتابه للمقارنة بين موقف الإسلام وقوانين الغرب، التي كرّست التفاوت الجنسيّ، ممّا أحدث شرخًا اجتماعيًّا وتفاوتًا طبقيًّا بعد اعتبار المرأة أقلّ درجة في هرم البناء الاجتماعيّ «كانت أوّل فضائله بين الجنسين، في الحقوق والواجبات، فاللامساواة في الواجبات تؤدّي إلى تدهور نصف النوع البشريّ. وحرمان النساء من حقوقهنّ الشرعيّة يؤدّي إلى طغيان الأثرياء في الزواج...لذلك وجبت المساواة والتّسامح في التعدّديّة الزوجيّة»[٣].

---

١. م. ن، ٨٧.

٢. م. ن، ٣٥.

٣. م. ن، ٩٢.

رابعًا: عالميّة الدعوة وإنسانيّة التّشريع

لم تكن رسالة الإسلام مجسّدة في دعوة محمّدﷺ تشريعًا محلّيًا مرتبطًا ببيئة ثقافيّة وأنثربولوجيّة محدّدة، فهي رسالة عالميّة تتعدّى حدود مركزيّة الجزيرة وعرقها العربيّ، فقد كرّست بعض الأبحاث محليّة الرسالة، وأثارت حولها شبهات إقليميّة، وخصّصت العرب بها بحكم نزول القرآن بأرضهم وبلغتهم.

فالعالميّة حملتها التعاليم والمقاصد من حيث الفاعليّة ومراعاة الفطرة وشموليّتها للقضايا الدنيويّة والأخرويّة. فقبل إرسال محمّد ﷺ لسفرائه إلى الدول المجاورة حاملين رسائل الدعوة والتبشير بدين جديد يوحّد الإنسانيّة حول الوحدانيّة ونبل القيم ورقيّها، كانت قيادة جعفر بن عبد المطلب -رضي الله عنه- لأوّل هجرة ولجوء سياسيّ.

وتجلّت العالميّة في اختيار الممثّل من حيث القول والفعل، ليكون نموذجًا وصورة للمؤمن بالدين الجديد، وهي الحادثة التي أثارت إعجاب لامرتين، فسردها وعرضها مستقرئًا مضمونها لاستنباط قواعد وأصول الدعوة المحمّديّة «كنّا غارقين في الظلمات حتّى بعث الله إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، دعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم...»[1].

كان هذا التقرير المفصّل والجامع لرسالة الإسلام تأسيسًا لمبدأ احترام الأديان والتأصيل لثقافة التعايش السلميّ بين العقائد، بما عرضه الخطيب من مبادئ وفضائل سامية، انطلاقًا من وحدانيّة الله، إلى احترام المرأة والابتعاد عن كلّ ما يسيء للكرامة الإنسانيّة من ظلم ونهب للمال وشهادة للزور.

وكانت تلاوة جعفر لبعض آيات القرآن حول نبيّ الله عيسىؑ دلالة على عالميّة الدعوة باحترام جميع الأديان السماويّة، دون تمييز بين الأنبياء وربط هذه القيمة الإيمانيّة بأركان العقيدة الإسلاميّة.

---

١. م. ن، ٧٦-٧٧.

فالأرضيّة المشتركة لجميع الديانات السماويّة والمتمثّلة في عبادة الله هي التي دفعت النجاشيّ، وهو من أهل الكتاب إلى حماية لاجئي الإسلام وحمايتهم من قهر أعدائهم.

إنّ حكمة محمّدﷺ واعتداله وثباته على رسالته مؤمنًا بصحّتها وحقيقتها، وعدم تناقضه وصبره على إيذاء وتحرّش قومه، أنتجت إيمانًا واعترافًا وإقرارًا من أعدائه، فدعوه إلى الحوار والهدنة بعد أن آمن الكثير منهم، فكانت مناظراته عقلانيّة وحجاجيّة معتمدة على البيّنة، وهذا ما منح لدعوته المشروعيّة «إنّ اعتدال محمّد وحكمته في إجاباته أدّت إلى إقناع قومه والإقرار بعلمه»[١].

خامسًا: التعايش الاجتماعيّ واحترام التعدّديّة الدينيّة

قام الإسلام كدين سماويّ على التسامح واحترام العقائد السماويّة وعدم إكراه الناس على الإيمان، مشرّعًا التعدّديّة الدينيّة والتعايش بين الطوائف بمختلف أطيافهم. ومبدأ التسامح في الإسلام قيمة إنسانيّة، فهي فطرة وإحساس واع بالآخر وباختلافه وخصوصيّاته الثقافيّة التي تشكّل هويّته.

وإذا كان التسامح في الثقافة الغربيّة نتيجة صراعات العلم والدين من جهة، وبين الدين والسياسة من جهة أخرى، فإنّ الإسلام أقرَّ هذا المبدأ، ووضع له تشريعًا يحميه ويؤطّره بهيكلة تضمن استمراريّته وتطبيقه بالجزاء والعقاب، محذّرًا من الإكراه، ومشدّدًا من مخاطر الغلوّ والتطرّف.

لقد أُعجب لاماتين كثيرًا بموقف محمّد ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، وتلبية القبائل العربيّة لنداء الإيمان، فجاءت معلنة الولاء والمبايعة «قدَّمت أهمّ القبائل العربيّة ولاءها لمحمّد، وبايعته كقائد روحيّ وسيّد على المدينة، وأنجز معاهدة مع الآخرين ضامنًا لهم الحريّة المطلقة في المعتقد، فبعضهم كان مسيحيًّا والآخر يهوديًّا والأغلبيّة وثنيّة»[٢].

وتلعب القوانين المكتوبة دور التحصين والتمكين من التطبيق العمليّ لبنود المعاهدات

١. م. ن، ٧٨.

٢. م. ن، ١٠٦.

التي تشــمل مبدأ التسامح؛ ولذلك وضع الرســول ﷺ مواثيق وقوانين مدوّنة تراعي الفروق والاختلافات بين مختلف الطوائف حماية للخصوصيّة ولثقافة المواطنة.

وبهذا يكون الرســول ﷺ قد نظر للمواطنة وقواعدهــا التي لم تعرفها وتعهدها المنظومات التشريعيّــة والقانونيّة الغربيّة إلّا مع فكر الأنوار «إنّ القوانين التي شرّعها فور اســتلامه المدينة والمتعلّقة بالشرطة والعدالة والمســاواة والســلم، تشــكّل كلّها منظومة قانونيّة حياديّة، تضمن سياسة التسامح والإنصاف»[1].

ويرى لامرتين أنّ هناك تكاملًا بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة خاصّة فيما تعلّق بالبدايات والصعوبات التي أعاقت انتشار الدعوتين، فقد حشد المخالفون وسائل متنوّعة لمنع الاستجابة والاعتناق، وكان الإنكار والتكذيب والمقاطعة والعدوان أهمّ أســلحة المناوئين، بالإضافة إلى تعرّض الأنبياء والرســل إلى الاضطهاد والتشريد والتغريب «هناك تشابه كبير بين بدايات بعثة محمّد وإيمانه بعقيدة القرآن، وبين تطبيقات المســيحيّة للإنجيل، لقد احتمى كثير من أتباع محمّد في مكّة بالمسيحيّة خوفًا من الاضطهاد، كما أنّ ملك الحبشة استقبلهم باعتباره المسلمين أنصاف مسيحيّين»[2].

اتّصفت كتابة لامرتين حول الرســول ﷺ بالموضوعيّــة والدقّة العلميّة من خلال تطبيقاته للمناهج الســياقيّة التي تتعامــل مع النصوص بوصفها أثارًا مفتوحة عــلى التأويل والقراءات المتعــدّدة، متجاوزة الصور النمطيّة والأفكار الجاهزة المؤسّســة على أبعــاد إيديولوجيّة، فأدّى ذلك إلى إنتاج وإفراز مادّة معرفيّة محرّفة ومزيّفة، مشــحونة بالمغالطات وتكرار الشبهات، التي تراكمت في الأبحاث الموجّهة والمقيّدة بمركزيّات بعينها. وقد أحدثت هذه النتائج صدى سلبيًّا في معتقدات المســلمين وتنوعًا في ردود الأفعال، بدأت من التشكيك في المنهج والنيّة، وانتهت إلى فعل المؤامرة على المقدّسات.

لقــد كانت كتاباته منصفة وعادلة في معظمها، وهو المعــروف بالاعتدال حتّى في علمانيّته،

---

١. م. ن، ١٠٦.

٢. م. ن، ٧٦.

فلم تكن مواقفه وشهاداته مناوئة للأديان ومعادية لها، فجاءت علمانيّته عقلانيّة تهدف إلى حماية الدين من سيطرة الدولة[1]، وهذا البعد العقلانيّ انعكس في تاريخه لسيرة محمّد ﷺ بتقديمه كعظيم من عظماء الشرق والعالم، غيرّت قيمه وتشريعاته الكون.

الخاتمة

١. في ختام هذه القراءة يُمكن الخروج بمجموعة استخلاصات نورد أهمّها في النقاط الآتية:

٢. كشفت بيليوغرافيّات السيرة النبويّة الغربيّة عن غياب المناهج العلميّة في البحث، سواء من حيث توظيف المنهجيّة أو التوثيق والاستقراء، فجاءت الأبحاث والدراسات متشابهة، مكرّرة، عبارة عن رصف وحشد للمغالطات والشبهات المتراكمة في مدوّنات القرون الوسطى.

٣. غلبت الصور النمطيّة والأفكار الجاهزة والأحكام المزيّفة على صورة الرسول ﷺ ولم تتجاوز محاور التّشكيك في نبوءته وزواجه وغزواته.

٤. لم تنج حتّى بعض المؤلّفات المعاصرة من تكرار الأخطاء ذاتها، سواء عن جهل وعجز في البحث والتمحيص، أو بسبب توجّهات إيديولوجيّة معروفة. ومن هذه السير، سيرة الرسول لمكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) الذي حاول أن ينظر: للرسول نظرة نفسيّة مركّزًا على مشاعر الإحباط والطموح والقهر[2].

٥. أنتجت المراجعات العلميّة تغييرات جذريّة في بعض المواقف وتعديلها، كشأن الكاتب الفرنسيّ فولتير (Voltaire) الذي انتقل من ضفة العدوانيّة إلى آفاق الإنصاف والعدالة.

1. Lalouette, "Les conceptions lamartiniennes des rapports entre l'Église et l'État", 65.
2. Hélène, Rodinson (Maxime) – Mahomet, Revue française de science politique Année, 13-2, 500.

لائحة المصادر والمراجع

1. Berriot, François, Remarques Sur la Découverte de L'Islam par L'occident, à la fin du Moyen-Age et à la RenaissanceIn: Bulletin de L'Association D'étude sur L'humanisme, la Réforme et la Renaissance, n°22, 1986.
2. Bilici, Faruk, "L'Islam en France sous L'Ancien Régime et la Révolution: Attraction et Répulsion", Rives Nord-Méditerranéennes, Ne 14, 2003.
3. Bossuet, Jacques-Bénigne, Discours sur L'Histoire Universelle, Garnier frères, Libraires Editeurs, Paris.
4. Boulainvilliers, Henri de, La vie de Mahomed, M.DCC.CCC, LONDRES, 1730.
5. De Lamartine, Alphonse, Le Civilisateur: Histoire De L'humanité Par Les Grands Hommes, Firmin Didot frères, Paris, 1852.
6. De Lamartine, Alphonse, Les Grands Hommes De L'Orient: Mahomet, Tamerlan, Le Sultan Zizim, A. Lacroix Verboeckhoven et Cie éditeurs, Paris, 1865.
7. ————————, Voyage en Orient, II, Tome, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1914.
8. Delaporte, Pacifique Henry, Vie de Mahomet, D›après le Coran et Les Historiens Arabes, Ernest Leroux, Éditeur, PARIS, 1874.
9. Dignat, Alban, Introduction à L'islam, Revue Herodote https://www.herodote.net/Introduction_a_l_islam-synthese-128-29.php
10. Dupont, Claude, Jean-Claude Lesourd, Qui êtes-vous Monsieur Voltaire? Essai Belles Lettres, 2014.
11. Geisser, Vincent, L'islamophobie en Europe: de l'anti- mahométisme chrétien au racisme «moderne» in Ingrid Ramberg (Sous la direction de) L'islamophobie et ses conséquences pour les jeunes, Éditeur, Conseil de l›Europe, 2005.
12. Gondal, S.S,I. L., Mahomet et Son œuvre, Librairie Bloud et Barral, Paris,1897.
13. Guérin, Paul, (sous la direction) Dictionnaire des dictionnaires: Lettres, Sciences, Arts, Encyclopédie Universelle, Tome V, Librairie des Imprimeries Reunies, Reims.
14. Hanne, Olivier, Qui était Mahomet? In Laurent Testot (Sous la direction) La Grande Histoire de L'islam, Éditions Sciences Humaines, 2018.
15. Harpigny, Guy, L'Islam Aux Yeux De La Théologie Catholique,in, Jacques Berque, Roger Arnaldez (et autres) Aspects de la foi de l'Islam, Presses de l'Université Saint-Louis, Bruxelles.

16. Irving, Washington, Vie de Mahomet, traduit par Henry Georges, Librairie Internationale, Paris, 1865.
17. Lalouette, Jacqueline, Les Conceptions Lamartiniennes Des Rapports Entre L'Église et L'État, in SylvieLe Grand (dir.), La laïcité en Question Religion, État et Société en France et en Allemagne du 18e Siècle à Nos Jours, Presses universitaires du Septentrion, 2008.
18. Maad, Assma, et William Audureau, Pourquoi parle-t-on de "Mahomet" et pas de "Mohammed" ou "Muhammad"? https://www.lemonde.fr/lesdecodeurs/article/2021/04/13/
19. Prideaux, Humphrey, The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet, Translated by Daniel de Larroque, Amsterdam: Chez George Gallet, M.DC. XCVIII.
20. Sale, Georges, The Alcoran of Mohammed, London, MDCCXXXIV.
21. Tolan, John, Voltaire, Premier Islamo-Gauchiste de L'histoire? https://www.lemonde.fr/le-monde-des-religions/article/2020/10/10/voltaire-premier-islamo-gauchiste-de-l-histoire_6055512_6038514.html
22. Vigliano, Tristan, "Pourquoi dites-vous Mahomet?", in: L'islam e(s)t ma Culture Leçons D'histoire Littéraire Pour Les Jours de Tourmente, Presses Universitaires de Lyon, 2017.
23. Voltaire, François-Marie Arouet dit, Correspondance Année 1740, in Œuvres completes, Garnier, Tome 35,1880.
24. ————, Dictionnaire Philosophique, Collection IDEALE, 2004.
25. ————, Essai Sur Les Moeurs et L'esprit Des Nations, Tome 1, Chez Lefèvre, Libraire, Werdet & Lequien Fils, Paris, 1829.
26. ————, Le Fanatisme, ou Mahomet le Prophète, M. DCC LIII.
27. Waardenburg, Jacques, L'Islam, les orientalistes et l'Occident. Recherche de Contact et de Dialogue, Revue, Théologiques, Volume 16, numéro 1, 2008.